دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد الثالث, ديسمبر 2006م (ص199-202)

مراجعة لكتاب "أعلام الفقهاء والمحدثين"

محمد شفيق الرحمن*

المقدمة

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.أما بعد فإن هذه مراجعة لكتاب " أعلام الفقهاء والمحدثين ابن حزم الظاهري علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأموي الأندلسي" للأستاذ الدكتور فاروق عبد المعطي.

وقد تناولت هذه المراجعة في النقاط التالية:
أولا: المقدمة، وفيها:
1- التعريف بالمؤلف
2- التعريف بالكتاب

ثانيا: القضايا الأساسية في هذا الكتاب

ثالثا: خاتمة وفيها :
1- الجوانب الإيجابية لهذا الكتاب
2- الجوانب السلبية لهذا الكتاب
3- رأي المراجع في هذا الكتاب.

التعريف بالمؤلف

هو الأستاذ الدكتور فاروق عبد المعطي من مواليد محافظة المنيا جمهورية مصر العربية، تولى وكالة كلية الآداب – جامعة المنصورة بجمهورية مصر العربية.

التعريف بالكتاب

اسم الكتاب: "أعلام الفقهاء والمحدثين ابن حزم الظاهري علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأموي الأندلسي." هذا الكتاب يشتمل على نبذة من حياة ابن حزم الظاهري فقيها ومجتهدا مستقلا، ومحدثا، وعصره، وبعض آرائه وفقهه، والمذهب الظاهري.

طبع هذا الكتاب دار الكتب العلمية - بيروت لبنان – الطبعة الأولى سنة 1992م الموافق سنة 1443هـ. وهو كتاب متوسط الحجم يقع في 176 صفحة. بدأ الكتاب بالمقدمة وانتهى بالكلام عن المذهب الظاهري بعد ابن حزم. وأعتقد أن الغرض من تأليف هذا الكتاب هو التشجيع على التزين والتسلح بالعلوم المتنوعة تأسيا بأمثال هؤلاء الجهابذة.

القضايا الأساسية في هذا الكتاب:

يشتمل الكتاب على القضايا الأساسية الآتية:

- نبذة من ترجمة ابن حزم الظاهري
- عصر ابن حزم
- منهاجه الإسلامي
- رأي ابن حزم في المفاضلة بين الصحابة

* محاضر لقسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية, الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ,بنغلاديش.

- فقه ابن حزم، والفقه الظاهري والمذهب الظاهري بالأندلس
- الاجهاد بالرأي في الفقه عند ابن حزم
- دراسة لمسائل من فقهه
- المذهب الظاهري بعد ابن حزم

ذكر المؤلف في المقدمة أنه ألف كتابا عن الإمام الشافعي، وكان يأمل في أن يكتب عن الإمام ابن حزم. فقد حقق أمله بتأليف هذا الكتاب.

يقول المؤلف في التعريف عن ابن حزم: هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف، ولد ابن حزم في رمضان عام 384هـ، بقرطبة بالجانب الشرقي. عند أكثر المؤرخين هو فارسي الجنسية، وقرشي ولاء، نشأ في أسرة غنية، كان أبوه وزيرا، فعاش عيشة رفاهية، ، ولكن بعد خروج السلطة من أيدي الأمويين إلى سلطان أبي منصور العامري وأسرته اختلطت حياته بالشدة، حتى أنه نفي بعد اعتقال دام عدة شهور. حفظ القرآن وقدرا من الشعر وتعلم الخط والكتابة في الصغر على أيدي النساء من الجواري والقريبات، تتلمذ على يدي أحمد بن الجسور (المتوفى 401هـ) وأبي القاسم عبد الرحمن الأزدي المصري (المتوفى عام 410 هـ)، وروى عنهما الحديث، وقرأ الموطأ والفقه على يدي عبد الله بن دحون، وتتابعت دراسته الفقه على غيره من العلماء، كان ابن حزم في بداية الأمر مالكيا، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وكان له دراية بالمذهب الحنفي، ثم انتقل إلى المذهب الظاهري، وكان ملما بالحديث والفقه وعلوم القرآن، والأدب العربي والنحو والمنطق والفلسفة وعلم التاريخ وعلم النفس والأخلاق وما إلى ذلك من العلوم، بل ساور العلوم الإسلامية كلها، تلقى فقه الحديث من المبسوطات، وتلقى فقه الشافعي من كتب الشافعية، والمذهب الظاهري من شيوخ وكتب الظاهرية، لم يكن يتقيد بمذهب معين، بل كان يحاول الوصول إلى الحق باجتهاده عند عدم وجود النصوص. وكان واسع الاطلاع، وقد ترك لنا مؤلفات عديدة، منها: الإحكام في أصول الأحكام، والمحلى، وطوق الحمامة وغيرها. وقد وافته المنية عام 456هـ.

الإنسان ابن البيئة والعصر، فهما يؤثران في الإنسان، فالعصر الذي عاش فيه ابن حزم أثر فيه أيضا، وهو جلي ظاهر في كتبه. وقد تعرض المؤلف لبيان الأحوال السياسية ،والأحوال العلمية، والأحوال الاجتماعية في عصر ابن حزم، وهي كالآتي:

كانت الأحوال السياسية مضطربة في عصر ابن حزم، وهي أثرت فيه، فكان يشعر بالألم على قرطبة، ثم إنه لما رأى أن البربر هم الذين تسببوا في الاضطرابات نزعت نفسه إليهم، وبسبب الاضطرابات ترك ابن حزم الدرس، فصار وزيرا لبعض بني أمية، ثم عاد إلى العلم مرة ثانية، وانتهز في هذه الفترة فرصة الدراسة للديانة المختلفة بسبب اختلاط النصارى بالمسلمين في أندلس، وكان بينه وبين الأمراء الذين استعانوا بالنصارى عداوة، وهذا أدى إلى إحراق كتبه. كان عصر ابن حزم عصر نهضة فكرية، وكثر فيه الإنتاج الأدبي والعلمي، وكانت هناك خزانة كانت تنوء بالكتب المتنوعة، وهذه الخزانة كانت تحت نظر ابن حزم، فاستفاد من هذه الكتب، كما استفاد من علماء ذلك العصر الأجلاء. وجدير بالذكر أن الاختلاط بين المسلمين والنصارى أدى إلى جدل في العقائد في ذلك الزمان، ولذلك اشتمل بعض كتب ابن حزم على تلك العقائد، وكان الناس في ذلك العصر يعتنون بقيام الشعائر الدينية، والتستر بالمنكرات، وجمع الكتب، وآثار هذه الظروف الاجتماعية ظاهرة في ابن حزم، وهي تتمثل في سلاطة لسانه مع رقة القلب. خلاصة الكلام أن كل أحوال أندلس كانت تساعد على تكوين العلماء الكبار.

يزعم المؤلف أن ابن حزم اتبع منهاجين في دراسته المختلفة، منهاج عقلي مجرد وذلك

حينما يناقش غير المسلمين، ومنهاج إسلامي، وهو يعتمد على العقل في فهم الدراسات الإسلامية، ويعتقد أن الطريق إلى العلم هو ما أوجبته بديهة العقل، والمقدمات الراجعة إلى بديهة العقل وأوائل الحس، فهويعتمد على العقل في إثبات التوحيد وصدق النبوة، وبعد ذلك يعتمد على النص، يأخذ بظاهره في العقائد والأعمال، ولايحاول تأويله، ولايجوز التقليد عنده، بل ينبغي أن يجتهد كل واحد حسب طاقته، ينهج ابن حزم في الاستدلال منهاج الجدل، يناقش الآراء ويرد على الخصم، ويأتي بالحجج ما يبطل بها دعوى الخصم، ثم يسلك مسلك الإلزام والإفحام.

اتهم ابن حزم بأنه كان يتعصب للأموين ويعادي عليا، ولذلك عرض المؤلف رأي ابن حزم في المفاضلة بين الصحابة بغرض إظهار الحقيقة في هذا الأمر، فذكر أنه يرى أن أزواج الرسول أفضل بعد الرسول، ثم أبو بكر ثم عمر، ثم يقسم الفضل إلى قسمين: فضل اختصاص، وفضل المجازاة على العمل، ويرجع أسباب الترجيح إلى سبعة أمور. يرى المؤلف أن ابن حزم كان شديدا على الشيعة.

ذكر المؤلف أن لابن حزم آراء تختلف عن غيره من الفقهاء، فهو يخالف الأئمة الأربعة في مسائل تعد في مرتبة المجمع عليها، وهو يعتمد على ظاهر الكتاب والسنة والإجماع فقط، ولايتعرض لتعليل النص، ولذلك سمي فقهه الفقه الظاهري. وقد اتبع هذا المنهج قبله أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني، كان داود شافعيا مذهبا في البداية، ثم انتقل إلى المذهب الظاهري، كان ينكر القياس ويقول بأن القرآن مخلوق، ولكن ابن حزم لم يقل بمخلوقية القرآن، ألف داود كتبا عديدة، وهي التي أحيى هذا المذهب شرقا وغربا، وكان لهذا المذهب مكانة في الشرق في القرنين الثالث والرابع، ثم أفلت شمس هذا المذهب في الشرق، وطلعت وقتئذ في الغرب.

يعتقد المؤلف أن ابن حزم ينفي الاجتهاد بالرأي، ويعتبر المجتهد بالرأي مفتريا على الله، فالنصوص كلها تعبدية عنده لايمكن تعليلها، وهوينكر القياس والاستحسان ومبدأ المصالح وسد الذرائع، ثم ذكر المؤلف أدلة ابن حزم ورد عليها.

تعرض المؤلف لبعض المسائل من فقه ابن حزم، وهي فرضية الزواج، هو يرى أن الزواج فرض على القادرين من الرجال على مؤنة الزواج وتكاليفه، والمسألة الثانية التي ذكرها المؤلف هي: أنه يحرم فرع المرأة على من كان زوجها بوجود شرطين وهما: الدخول بالمرأة، وأن يكون الفرع في حجره، مع أن الجمهور لايشترطون كون الفرع في حجره، ، والمسألة الثالثة هي مسألة إجارة الأرض، فهي غير جائزة إطلاقا عند ابن حزم، وقد ذكر المؤلف قول الجمهور في هذه المسائل مع ذكر أدلتهم وأدلة ابن حزم والرد عليه.

لم يمت المذهب الظاهري بموت ابن حزم، بل نشر هذا المذهب تلاميذه المخلصون، وساعدت في نشر مذهبه مؤلفاته العديدة، وكان لأبي يعقوب أثر كبير في إحياء المذهب الظاهري، أقول وقبل كل شيء إرادة الله هي من أهم أسباب بقاء هذا المذهب.

خاتمة، وفيها ما يلي

أولا: الجوانب الإيجابية لهذا الكتاب

1- لغة الكتاب ميسرة مفهومة.
2- إن عنوان الكتاب مطابق للمضامين التي تضمنها هذا الكتاب.
3- إن للكاتب رأيا خاصا مدعما بالحجج والبراهين.
4- يحاول التوفيق بين الروايات المتضاربة عن ابن حزم.

5- ينقد كلام ابن حزم أحيانا معتمدا على الأدلة.
6- ينقل كلام الآخرين ثم يناقشها.
7- يذكر في الهامش ترجمة كل من ورد اسمه من العلماء أو الرواة في هذا الكتاب.

ثانيا: الجوانب السلبية لهذا الكتاب
1- أحيانا يعيد نفس الكلام، ومن هنا يظهر كلامه كأنه غير مرتب.
2- لم يذكر المؤلف اسم المطبعة، وتاريخ الطبع لا في ثبت المراجع ولا في الهوامش.

ثالثا: رأي المراجع في هذا الكتاب
بعد التطرق لأبواب الجوانب الإيجابية والسلبية لهذا الكتاب وصل المراجع إلى النقاط التالية:
1- لايمكن أن نصف كتابا بالكمال المطلق خال عن الخطأ إلا القرآن الكريم، وأما الكتب الأخرى فيمكن تعرضها للخطأ، فوجود بعض السلبيات في هذا الكتاب ليس بعجيب.
2- إن هذا الكتاب يتضمن موضوعا مهما؛ حيث إنه يشجعنا على التأسي بالعلماء الجهابذة.
3- زاد هذا الكتاب المكتبة الإسلامية جمالا وبهجة.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب الأمة الإسلامية، وأن يجزي صاحبه وكل من ساعد في نشره وقارئه خير الجزاء.